كلّ كنيسةٍ هي بيتٌ لله

حديثٌ رابع حول القدّاس الإلهيّ، الجزء الأول

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

بمعونة الله، نتابعُ تفسير نصِّ القدّاس الإلهيّ على قدر طاقتنا. اليوم سنتأمّل في الطلبة التالية من الطلبة السلاميّة الكبرى: "من أجل هذا البيت المقدّس والذين يدخلون إليه بإيمانٍ وورعٍ وخوف الله، إلى الربّ نطلب".

إذًا، نحن نصلّي من أجل هذه الكنيسة المقدّسة التي ندعوها في هذه الطلبة بيتًا مقدّسًا. فالكنيسة، في نهاية الأمر، هي بيت الله، أي مكانٌ يسكن فيه الله. يجب أن نفهم أنّ الله لا يحدُّه أيُّ حيِّزٍ مكانيّ طبعًا. فهو لا يعيش في كنائس من صنعٍ بشري، ولا يستقرّ في منازل وأبنيةٍ مهما كانت ضخمةً وجميلةً ومهيبة. ما من شيءٍ في الخليقة بإمكانه احتواء الله في داخله. فهو خلَقَ كلّ شيء ويفوق كلّ شيء. لماذا إذًا نقول إنّ الله يسكن في الكنيسة؟

يسكن الله في الكنيسة بنعمته غير المخلوقة، لأنّنا نقيم الأسرار الإلهيّة فيها. يُحتَفَلُ بالأسرار الكنسيّة فيها، وشعب الله الذي اجتمع في هذا المكان المقدّس هو الكنيسة. في الوقت نفسه، يُكرَّسُ بيت الله بواسطة طقسٍ خاصّ يقرأ فيه رئيس الكهنة بعض الصلوات الرائعة من أجل تكريس المائدة والكنيسة بأكملها. يستحقّ الأمر أن نقول بضع كلماتٍ حول هذا الطقس.

كما يخبرنا العهد القديم، كان الإنسان في العصور القديمة يعبد الله عبر بناء مذابح حجريّة، وتقديم ذبائح حيوانيّة عليها (راجع مثلًا تكوين 8:20 و 12:7-8). هكذا كان الناس يقدّمون العبادة قبل ناموس موسى. وبعدما أعطى الله الشريعة لموسى، أُقيمَت خيمة الاجتماع حيث كانوا يحتفظون بذخائر الشعب الإسرائيليّ: لوحَي الشريعة، وجرّة المنّ، وعصا هارون التي أفرعَت، وأشياء مقدّسة أخرى. حين دخل

إسرائيل شعبُ الله أرضَ الميعاد، بنى الملك سليمان الهيكل كما أرشده الله، بناءً على رغبة الشعب كلّه. وتحديدًا في هذا المكان، في الهيكل، قام اليهود، واليهود فقط، بتقديم العبادة للإله الحقيقيّ. حين تألّم مخلّصنا يسوع المسيح على الصليب، أُبطِلَ ناموس موسى، وخسر الشعب اليهوديّ ملكوت الله (راجع متّى 21: 43). ثمَّ أسّس الله شعبه، أمَّته – أمَّة الكنيسة، أمَّة المسيحيّين التي تمتاز عن جميع الأمم والشعوب.

بعد قيامة المسيح وصعوده، وفي السنوات الأولى من وجود الكنيسة المسيحيّة، استمرّ المسيحيّون في الذهاب إلى هيكل سليمان مع اليهود. تعلّموا هناك شريعة موسى، ورتّلوا المزامير وسبّحوا الله. وبعد انتهاء خدمة الهيكل، كانوا يجتمعون في بيت أحد المؤمنين ويحتفلون بالإفخارستيّا الإلهيّة، ويتناولون جسد المسيح ودمه. مع ذلك، فإنّ هذا الوضع لم يستمرّ طويلًا، إذ إنّ المسيحيّة بدأت تستقبل شعوبًا أخرى [من غير اليهود]، ممّن كان محرَّمًا عليهم [بحسب شريعة موسى] الدخول إلى هيكل سليمان. لذلك فقد اضطرَّ المسيحيّون إلى الانفصال عن العبادة اليهوديّة. في البدء، أخذوا يجتمعون في البيوت، حيث كانوا يصلّون ويدرسون شريعة الله ويُقيمون خدمة الإفخارستيّا الإلهيّة.

ولكن سرعان ما دخلت الكنيسة في زمن الاضطهاد، واعتُبِرَت غير قانونيّة مدّة ثلاثة قرونٍ تقريبًا. عانى عددٌ هائلٌ من المسيحيّين في ذلك الوقت. بحسب سجلّات الشهداء، استشهد ما لا يقلّ عن أحد عشر مليون شهيد تقريبًا في القرون الثلاثة الأولى من الاضطهاد. في يومٍ واحدٍ فقط، حُرِقَ عشرون ألف مسيحيّ أحياءً في نيقوميديا. فماذا فعل المسيحيّون حين كانوا مضطهدين؟ اجتمعوا في المقابر، في المدافن. كلُّ مَن ذهبَ إلى روما قد رأى الديناميس، أي أضرحة المسيحيّين التي كانت في الوقت ذاته أماكن لتجمُّعات الصلاة. نحن أيضًا لدينا ديناميس هنا في قبرص، مثلًا في "بافوس" (ديناميس القدّيسة سولومونيا). كانوا يدفنون الشهداء المسيحيّين في الديناميس، ثمّ يحتفل المؤمنون بالإفخارستيّا فوق قبورهم. لا بدّ من وجود مائدةٍ للاحتفال بالإفخارستيّا، وفي الديناميس، كان بلاط القبور يستخدَم كموائد.

مضت القرون الثلاثة الأولى، واعتلى القدّيس قسطنطين الكبير العرش الملكيّ وأنهى الاضطهادات، فخرجت الكنيسة من الديناميس. وماذا بدأت تفعل؟ بدأت تبني الكنائس فوق قبور الشهداء. إذا ذهبتُم إلى

دير القدّيس هرقليدِس[1]، سترَون قبر القدّيس تحت الكنيسة. هكذا بالضبط بُنيَت الـ "martyria" [ج. Martyrium] في العصور القديمة، وهي كنائس فوق قبور الشهداء. بنى المسيحيّون الكنائس في كلّ مكان. عندها ظهر طقسُ تكريس المكان الذي ستجري عليه خدمة الله – طقس تكريس المائدة المقدّسة.

اليوم، عند تكريس الموائد في الكنائس المبنيّة حديثًا، نستخدم إلى جانب الميرون المقدّس، ذخائر الشهداء، متّبعين بذلك تقليد الكنيسة القديم في بناء الكنائس فوق رفات الشهداء ودمائهم. إنّ الأسقف الذي يقوم بالتكريس (يحقّ للأسقف وحده أن يكرّس كنيسةً ومائدة)، يجلب معه صندوق ذخائر صغيرًا فيه جزءٌ صغيرٌ من رفات الشهداء القدّيسين. وعند دخوله الكنيسة، يدخل إلى الهيكل ويضع صندوق الذخائر في المكان المخصَّص له. تُضاء شمعةٌ أمام الذخائر. وتُقام صلاة الغروب، مع صلاة السحر في اليوم التالي. عندما يحين وقت التكريس، وبعد قراءة ثلاث صلواتٍ افتتاحيّة، يحمل الأسقف الصينيّة المقدّسة عليها صندوق الذخائر، ويطوف ثلاث مرّاتٍ حول الكنيسة مع جميع الإكليروس والمؤمنين. يحملون في الزيّاح، إلى جانب الذخائر، الإنجيل والصليب والمراوح والرايات والشموع. عندما نقوم بالزيّاح مع ترتيل الطروباريّة وقراءة الصلوات، نُقدّس كنيسة الله، ويصبح هذا المكان مقدَّسًا ومجمَّلًا، وتتلقّى الكنيسة حُلّةً مليئة بالنعمة، فتصبح مخصَّصةً لله.

بعد الزيّاح حول الكنيسة ثلاث مرّاتٍ، يدخل الإكليروس والمؤمنون إلى الداخل. يُعدُّ مسبقًا مكانٌ خاصٌّ في وسط المائدة لتوضع فيه الذخائر المقدّسة. إذا كان أحدكم قد اشترك في خدمة تكريس، فلا بدّ من أنّه لاحظ بأنّه قبل وضع الذخائر في المكان المخصَّص لها في المائدة، يضع الأسقف هناك قائمةً بأسماء مؤسّسي الكنيسة، أي مَن عمَّروا هذه الكنيسة من خلال التبرُّع بالأموال اللازمة لبنائها.

قد تقولون: "حسنًا، وماذا عنَّا؟ لا نملك الكثير من المال. يمكننا التبرُّع بالقليل فقط من أجل البناء. ألن تُذكر أسماءنا في أيِّ مكان؟". ردًّا على ذلك أقول لكم: يحكم الله بحسب استعداد كلّ واحد. تتذكّرون كيف يتحدّث الإنجيل عن الأرملة التي ألقَت فلسَين فقط في خزانة الهيكل، والتي قال عنها المسيح إنّها ألقَت أكثر من الجميع، مع أنّ الآخرين ألقَوا الآلاف. كانت المرأة الفقيرة تملك فلسَين فقط، وقدّمتهما

[1] هو أسقف تماسوس القبرصيّة وشهيد. عيده في 17 أيلول. عاش في القرن الأوّل وكان تلميذًا للرسولَين بولس وبرنابا.

للهيكل من دون أن تحتفظ بشيءٍ لنفسها. ربَّما امتلك الآخرون عشرات الآلاف من القطع النقديّة، ولكن قدّموا إلى الهيكل ألفًا فقط. من تبرّع بكلّ ما يملك؟ تلك التي امتلكت فلسَين فقط. وبالتالي فإنّ الله يحكم بمعايير مختلفة.

يضع الأسقف قائمة أسماء المحسِنين إلى الكنيسة في وسط المائدة، ثمّ يضع الذخائر المقدّسة هناك. مباشرةً قبل وضع صندوق الذخائر في هذا المكان، يسكب الأسقف الميرون المقدّس على الذخائر ثلاث مرّات، ويُعلن ثلاث مرّات: "ليكُن تذكار الذين عمّروا هذه الكنيسة المقدّسة مؤبّدًا". إذًا نصلّي من أجل مؤسّسي الكنيسة. في كلّ خدمة، في الغروب والسحر والقدّاس، تذكر الكنيسة المحسنين إليها: "وأيضًا نطلب من أجل المطوَّبين الدائمي الذكر الذين عمّروا هذا الهيكل المقدّس". إنّه لشرفٌ عظيمٌ أن يصبح أحدُهم باني كنيسة مقدّسة! لذلك، فإنّ أسلافنا بنَوا كنائس كبيرة وصغيرة كلّما استطاعوا ذلك وبحماسةٍ كبيرة. كان ذلك بركةً عظيمةً لهم ولعائلاتهم وللمسيحيّين كلّهم.

يُغطّى صندوق الذخائر الذي يوضع في ذلك المكان ضمن المائدة، بعجينةٍ خاصّةٍ مصنوعةٍ من الشمع والصمغ وغيرها من الزيوت العطريّة. بعدها يُملأ هذا الحيّز بهذا الشمع والصمغ، ويُغطّى بغطاء. تُمسَح المائدة بالميرون المقدّس، ثمّ تُعلّق أيقونات الإنجيليّين الأربعة على أطراف المائدة. بعد ذلك، تُزيَّن المائدة بقطع قماش: قماشة بيضاء في الأسفل ترمز لكفَن دفن المسيح، وفوقها قماشةٌ حمراء ترمز لدم المسيح الممنوح لنا في الإفخارستيّا المقدّسة. هكذا، تُكرَّس مائدة الله وكنيسته.

عندما نمرّ قرب كنيسة، نبارك أنفسنا برسم إشارة الصليب. لماذا نفعل هذا؟ لأنّنا ندرك أنّ الكنيسة مقدّسة، وأنّها بيت الله وفي داخلها ذخائر لشهداء قدّيسين. ففي كلّ كنيسة، ثمّة ذخائر مقدّسة في المائدة. للأسف، يعرف الأتراك هذا التقليد. لذلك عندما احتلَّ الأتراك شمال قبرص ودمّروا الكنائس في المنطقة المحتلّة، حطّموا الموائد ورموا ذخائرها المقدّسة. إلّا أنّ بعض الذخائر أُنقِذت: عندما هرب أشقّاؤنا القبارصة من المحتلّين وغادروا مسقط رأسهم، أخرجوا الذخائر من الكنائس وأخذوها معهم.

في حال عدم وجود كنيسةٍ مكرَّسةٍ للاحتفال بالقدّاس، نستخدم ما يسمّى بالإنديمنسي. ما هو الإنديمنسي؟ هو قطعة قماشٍ مستطيلةٌ عليها أيقونة المسيح في القبر (مثل الإبيطافيون). مكتوبٌ على

أطراف الإنديمنسي: "خُصِّص هذا المذبح المقدّس لتُقام عليه الإفخارستيّا الإلهيّة لمجد وشكران ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح". يكرّس الأسقف هذا الإنديمنسي في أثناء تكريس الكنيسة، ويمسحه بالميرون المقدّس. وتوضع فيه أجزاء من الذخائر المقدّسة مثلما وُضعَت في المائدة.

بعكس المائدة، يمكنكم أن تأخذوا الإنديمنسي حيثما شئتُم. ولا يمكن الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ من دونه. بالطبع، إذا كانت الكنيسة مكرَّسة، يكون الإنديمنسي غير ضروريّ[2]. ولكنْ إذا ذهبتُ إلى مكانٍ ما لإقامة القدّاس الإلهيّ، في هذه القاعة مثلًا، فلا يمكنني فعل ذلك من دون الإنديمنسي. فإذا لم توجد مائدةٌ مكرَّسة، لا بدّ من أن يكون لديك إنديمنسي. في وجود الإنديمنسي، يمكنني إقامة القدّاس الإلهيّ في الهواء الطَّلق، أو على قارب، أو في ملعب، "في كل مواضع سيادته". وحيثما يتواجد الكاهن، يمكنه الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ إذا كان لديه إنديمنسي[3].

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2024). “Every Church is a House of God”, *OrthoChristian.com.* Link

[2] في بعض الكنائس الأخرى، يوضع الإنديمنسي حتّى لو كانت الكنيسة مكرّسة (المعرّب).

[3] يجري ذلك عند الضرورة وفي الحالات الطارئة، في حال عدم توفّر كنيسة لإقامة القدّاس (المعرّب).